دراسات..

التكاملية/ التركُّبية والفـــن والإبـــداع

□ د. معن النقري*

ـ الإثْنوميوزيكولوجيا مثالاً على تداخُلية وتعدُّدية الاختصاص

كان يلزم منذ البداية تمييز وتحديد المتشابِهات في عالم التفاعل والتداخُل الاختصاصي انطلاقاً من جزْء الكلمة المركَّبة الذي يُعطي هذه الدلالة الدقيقة أو تلك، وهذا ما سأفعله الآن: ثمة المُضافات اللغوية التالية: intra ـ التي تفيد معنى: ضمن/ داخل...، وَ inter ـ وهي تفيد معنى بَين وما بَين، وَ multi ـ التي تفيد معنى المتعدِّد أو التعدُّدي، بَعد هذا أستطيع أن أقدِّم اختباراً تمييزيّاً للمتشابهات [«لولا المتشابهات لحفظتْه البنات»!!] بمثابة مسألة دلالية: ما الفرق بين المصطلحات التالية في حقل ترابط وتفاعل الاختصاصات/ التخصُّصات:

intra/ disciplinary وَinter/ disciplinary وَmulti/ disciplinary?

سأتركُ الجوابَ معلَّقاً للتمعُّن والتفحُّص والتأمُّل والتفكُّر.

وستجد هذه المصطلحات المركَّبة جميعاً، كما ستجد علْماً حدِّيّاً ثلاثيَّ الأبعاد هو: علم الموسيقى السيكولوجي الإثْني في دراسةٍ تضم ذلك كلَّه وتجسّد ترابطية وتفاعلية الاختصاصات، وفي حقلٍ قليلاً ونادراً ما يثير الانتباه ثقافياً ومعرفياً وعلمياً بوجْهٍ عام ـ أعني حقل دراسة الموسيقى الشعبية الفولكلورية التراثية/ الشفَوية، بأَبعادها النفسية/ السيكولوجية وخلْفياتها العرقية، والإثنية (بصورةٍ أشمل)، وهي معاً موضوع علم الموسيقى السيكو ـ إثني أو ما يُسمَّى: «سيكو / إثْني/ ميوزيكو/ لوجيا» في إطار دراسة ترصد علم الموسيقى الإثْنية إجمالاً منشورة في دورية علم الموسيقى

* باحث من سورية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(موزيكوزْنانييي) في بلغاريا عام 1983 مِن حوالي 17 صفحة، مع العلم أنَّ المؤلّف روماني هو/ هي / «جيزيلاسوليْتْصيْانو».

[راجعْ س. آ. كوغان ــ مُراجِعيّة P.K. الفلسفة وعلم الاجتماع ـ سلسلة 3 ، العدد 5 لعام 1984 (ع5/1984) ـ العلوم المجتمعية في الخارج ــ إينيون ــ أكاديمية العلوم «س»، ص102 ـ 103].

وكنتُ صنَّفْتُ هذه الدراسة وحضَّرْتُ لضمِّها إلى عائلة بين ـ الاختصاصية منذ أيام وأسابيع مع اطلاع أوَّلي وتحضير تقويم إجمالي مع خطوط عريضة انتقادياً ومعالجةً مذْ ذاك، فلم يصلْ دورُها حتى الآن، والذي يكون قد حصل فعلاً أنها أخذتْ طريقَها إلى التطبيق مع تصنيفي لها بَين ـ الاختصاصي، ومتعدِّي ــ الاختصاص، وتعدُّدي ــ الاختصاص، وضمن ـ الاختصاصي...إلخ كلُّ ذلك مع ملاحظاتي صار أمراً واقعاً بمعنىً ما وبصورةٍ ما في تجاوُبيةٍ/ تفاعليةٍ بنَّاءة منذ البارحة في برنامج سهْرة مطوَّلة على الفضائية السورية (القناة الحكومية الرسمية الرئيسَة/ الأولى) ضمَّتْ ثلَّة من نخْبة المطربين وأركان الغناء السوري والنقاد الموسيقيين والموجِّهين التربويين الموسيقيِّين والعازفين والملحِّنين...إلخ والموضوع المركزي الموجَّه كان بتكثيف الانتباه إلى الموسيقى الشعبية/ الفولكلورية السورية الأصيلة بألحان عَفوية تراكمية ومن التراث الشفوي القديم والعريق مع تمثيلٍ عادل قدر المستطاع للمحافظات والأقاليم الوطنية المتنوّعة: في الشرق والجزيرة والفرات ــ في الساحل ـ حلب ـ حمص وحماة ـ دمشق...إلخ وكانت فرصةً نادرة لاستجماع واستنفار هذه الجمْهرة الفولكلورية السورية العريقة التي غابت عن الساحة أوْ كادتْ، والتي لا يماثلها في التجذُّر وعمق التأثير النفسي شيءٍ من ألحان الحاضر العابر، وهي مثَّلتْ تنوُّعاً إثْنياً معتَرفاً به في البرنامج (أقول إثنياً وليس عرقياً والبون شاسع والفرق واضح بين المصطلحَين)، لقد حرصتْ الترجمَاتُ العربية العَجولة على وضْع كلمة إثْني تعريبياً على أنها عرقي وهذا خطأ كبير فالإثنيات والمجموعات الإثنية هي تلك التي تتباين وتتمايز فيما بينها في أحد أو بعض أو عدد من العوامل الكثيرة التي من بينها ــ / مِن بينِها وليس إياها كلها/ ــ العِرْق، واللغة، والدين، والسِمات الثقافية والخصائص النفسية الروحية والعقيديَّة، والعادات والتقاليد والحلال والحرام...إلخ...إلخ فالمفهوم الإثني واسع شاسع عابر ومتجاوِز للعرقي. هكذا سبق التطبيق الإعلامي /الميدْياوي نوايا ومقاصد التطبيق الفردي الأصلي في تجربتنا هنا، بل وسبق التطبيق الكتابي بمعنى الكلامي أو الكتابة أو الإفصاح التأليفي عن الموضوع والمحور في أي شكل أوْ صيغة، حتى كنوع من تسجيل يوميَّات أوْ مدوَّنات أو عرض وتقويم دراسة في هذا الحقل الواعد والاستثنائي سواءً كمادَّة درْس ودراسة أم كطريقة ونهْج للمعالجة ضمْن ـ بين ـ تعدُّدية ـ الاختصاص: عبْر / متعدِّية... أوْ بَين / ميزو... أو متعددة/ تعدُّدية/ مولْتي.... الاختصاص/ والتخصُّصية.

أمَّا هنا فأنت إضافياً أمام عبْر/ أو تعدِّيات/ أو تجاوزات الحواجز والحدود كافةً ومِن سائر الأصناف ممارسةً وتطبيقاً، حتى قبل تسجيل النوايا والطوايا والأفكار والطروحات والرؤى أو تدوينها وتصنيفها في أيِّ «مصنَّفٍ» ــ وقبل التعبير عنها بشكل ملموس في أيّ صيغة ورقية أو غير ورقيّة [ما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عليك إلاّ بقوانين ومنطق التخاطُرية والباراسيكولوجيا)؛ وأمَّا بَعد هذا التعبير منا مادياً أوّلياً رمزياً فالله يعلم كم مِن الإجراءات والوقت والممارسات الوسيطية اللازمة للنشر والتوزيع وصولاً إلى القارئ.

جاء عنوان دراسة «جيزيلاسوليتْصْيانو» (رومانيا) كما يلي:

«الدراسات ضمْن/ داخل الاختصاصية، وبَين ـ الاختصاصية (إنْتْرا ـ ... وَإِنْتر ـ ...) في الإثْنوميوزيكولوجيا».

وهي تعرِّف هذه الإثْنو/ميوزيكولوجيا (أوْ «إ.م.» ختصاراً) بأنها: الاختصاص الذي يدرس «البنى والعمليات الاجتماعية ـ التاريخية والمورفولوجيّة للتموْقُع/ التواجُد الشَفَوي للثقافة الموسيقية: الموسيقية ـ الشِعْرية، والموسيقية ـ الخورْيوغْرافية، والموسيقية ـ الشِعرية ـ الخورْيوغْرافية».

مِن جهةٍ فإن الإثْنوميوزيكولوجيا (إ.م. إختصاراً) هي أكثر من مجرد اختصاصاتٍ أُخرى ما تخضع للإدخال والضَمّ إلى الدراسات بَين ـ الاختصاصية (مع إشراك وإثارة اهتمام كلٍ مِن: علم النفس، والإناسة/ الأنتروبولوجيا، وعلم الاجتماع، والفلسفة، وعلم الجَمال، واللسانيات وما إلى ذلك).

ـ ومِن جهةٍ أخرى فإن «إ. م.» ذات تقاطعات كثيرة مع علم الفولكلور/ الفولكْلوريَّات/ وعلم الموسيقى.

إن التحليل الإثْنوميوزيكالي (إ.م.) / أو الإثْنوموسيقيّ/ لظاهرة الثقافة الموسيقية الشفوية يساعد الدراسات في دائرة اختصاصات «طليعية» / رياديّة/ أخرى أمثال: سوسيولوجيا الموسيقى (أو علم اجتماع الموسيقى)، وإناسة/ أنتروبولوجيا/الموسيقى، والسيكو/إثْنو/ميوزيكولوجيا.

الدراسات ضمْن ـ الاختصاصية (الإنْترا ـ اختصاصيّة) في مجال «إ. م» (إثنوميوزيكولوجيا) تشمل دراسة الجوانب والسياقات المختلفة للخوريوغرافيا الشعبية، والتسجيلات الإيقاعية/ اللحنية، والعادات والتقاليد الموسيقية والغنائية والراقِصة/ الرقْصيّة/...إلخ. وهذه الدراسات تساعد على إيضاح الحدود بين «إ. م» (أوْ «م. إ.» ـ إقلاباً تعريبيَّاً لو شِئْت تعبيراً عن علم ـ الموسيقى الإثنية) وغيرها من العلوم الفولكلوريّة.

ومِن وِجْهة الدراسات بَين ـ الاختصاصية، فإنَّ «م. إ»/ أوْ «إ.م»/ تُستخْدَم في الوقت الحاضر وغالباً في اللسانيات (الاختصاصات اللغوية) ـ كعلم اللهجات/ الديالكتولوجيا، وعلم الأصوات/ أوْ الصوتيّات أو الفونيتيكا.

ويمكن أن تنشأ رابطة خصبة بين «م. إ»/ «إ. م» وعلم النفس، لأنَّ الأولى ـ «م. إ...» تعي ضرورة التفسير السيكولوجي العميق لعمليات إدراك الثقافة الموسيقية الشفوية، وللمراحل الأساسة قبل ـ الموسيقية، وقبل ـ العرْفية (مِن عرْف/ أعراف)، وللإيقاعات والألحان/ الريتمْات في الفولكلور الطِّفْلي لأجزاء المعمورة المتباعدة فيما بينها، وللعلاقة بين الصوت والسلوك البشَري..إلخ.

وينوِّه المؤلِف/ المؤلِفة أن علم الجمال بقي الأقل اهتماماً بالاختصاص الحالي ـ «م.إ» ـ مع أنَّ علم الإثْنوموسيقا (أوْ علم الموسيقا الإثنية) يستطيع إغناء علم الجمال بمعايير / مقاييس جديدة للتقويم/ التقييم الجمالي (الإيسْتيتيكي) بأنْ يُدخِل إليه تحليل ظواهر الثقافة الموسيقية الشفوية للشعوب المتباينة(1).

***

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ــ الإبداع الفني في مقارَبة تكاملية مركَّبة

مرَّت عقود عديدة مديدة على المحاولات الأولى للتقريب بين العلْم والفن ــ أوْ بين «ثقافتَين» متباينتَين في عرْف بعضهم، سواءً في الغرب أم في الشرق، وتعود المحاولات الجدية والمكثَّفة في الاتحاد «السوفيتي» مثلاً إلى عام 1962 بدايةً ثم عام 1963 ترسيخاً وتأكيداً ثم باستمرار. كما أنّ استخدام المنْهجيات العامة معرفياً كالمنظوميَّة والدراسات والمقارَبات المركَّبة Complex وبَين ــ الاختصاصية...إلخ شمل سائر العلوم، بل وانتقل للاستخدام في عالَم الفن والأدب أيضاً، بحيث خضعت دراستُهما بدورِهما للمنظور المركَّب والمقاربات المنظومية ولتعدُّدية وتداخُلية الاختصاص/ أو بَين ــ الاختصاصية بالمعنى الأشمل. وتعمَّق هذا الاتجاه ليس نظرياً وفكرياً فقط، بل إجرائياً وممارسةً أيضاً، والأكثر والأعمق من ذلك كلِه إنشاء جهات تنظيمية ترعى التفاعل بَين ــ الاختصاصي والدراسات والمقاربات المنظومية المركَّبة في عالَم الأدب والفن بالذات، وذلك عبر إنشاء لجان ومجالس متخصِّصة منبثقة عن أكاديميات العلوم: لا ننسَ أن للأدب والفن علومَهما المباشَرة أيضاً: نظرية أوْ علم الأدب، وفلسفة الآداب، وكذلك فلسفة الفن وعلم الجَمال كما نظرية أو علم الفنّ، وكل ما يُدخِل الفن والأدب إلى حوزة العلوم والمعارف المنظَّمة.

في الاتحاد «السوفييتي» حين حمي وطيس التقريب بين العلم والفن ــ بين العلم والثقافة بصورةٍ أشمل، حصلت إجراءات تنظيمية ـ مؤسَّسية ترعى ذلك (وشيء من ذلك جرى غربيّاً أيضاً فكْرياً ومنْهجياً على الأقلّ) فصار لدى أكاديمية العلوم مجلسٌ متخصص هو «المجلس العلْمي لتاريخ الثقافة العالمية»، والذي منه بدورِه انبثقت لجنة مثيرة للاهتمام وذات راهنية إنها «لجنة الدراسة المركَّبة Complex للإبداع الفنيّ»، وهكذا تكون بين ــ الاختصاصية، والتعددية الاختصاصية قد دخلت عالم الفن ودراستِه في العمق وحتّى تنظيمياً ـ مؤسَّسيّاً؛ وأعتقد أن أول رئيس لهذه اللجنة والذي رئِسَها لأطول فترة أيضاً هو المنظر الثقافي/ الفني الأدبي «ب. س. ميلاخ» والذي تُرجِمتْ له بعض الأعمال، وكان كتابُه المترجم عام 2014 (سورية/ وزارة الثقافة/ الهيئة العامة السورية للكتاب) يحمل هذا التاريخ كلَّه وهذه البصمات جميعاً وحتى في عنوان الكتاب ــ «عملية الإبداع والإدراك الفنّي مقاربة تكاملية»، وقد أثارني الفضول لمعرفة الأصل الذي تُقابله كلمة تكاملية فتَبيَّن من الغلاف الداخلي الذي يُشير إلى هذا الأصل بلغتِه الأمّ أن هذا المقابل هو كومبلكس... Complex أي ما أُسمِّيه أنا مركّب (ومركَّبة...) ما يعني أن المقاربة هي «مقاربة مركَّبة».

وقد أعود إلى هذا الكتاب المعرَّب لاحقاً، أمَّا الآن فسأتناول عرضاً لكتابٍ آخر من تحرير «ميلاخ» بلغتِه الروسية الأصلية مكتوب في ذات الفترة المتزامنة مع الكتاب المترجَم له، أي بدايات وأواسط الثمانينيَّات (وإن تكن الترجمة صدرتْ عندنا عامَ 2014 ولكنَّ المضمون والمنهجيات شديدة الحداثة والراهنية عندنا وعند غيرنا لأن المنظورات والمقارَبات فيها جميعاً «تكاملية» أوْ مركَّبة، وهذا ميل لازال بازغاً وواعداً ويفتقر إلى الدعم والتطوير). وبالطبع فإن هذا الكتاب الآخر وعروضه والتعريفات به غير متداوَلة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عربياً، لذا يمكن أن تُغْني وترفْد خطَ التعريف بهذا المنظّر الثقافي / الفني / الأدبي ــ من جهة، وخط الاتجاهات التكاملية المركَّبة بَين ـ الاختصاصية ـ من جهة أخرى، ومعاً.

جاء عنوان الكتاب اختصاراً كما يلي: الإبداع الفنّي: مسائل الدراسة المركَّبة / «التكاملية»، 1983(2). وهو مجموعة دوريّة اعتادت على إصدار أمثالِها لجنة الدراسة المركّبة للإبداع الفنّي، ويجري استهلال التعريف بها على أنها تضم مشكلات ملِحّة وراهنة لوظيفيّة الفن في المجتمع مِن مواقع المقارَبة المنظومية بَين ــ الاختصاصيّة، ومكوَّنة من عدةِ أقسام وفروع، وفي كلٍ منها مقالات عديدة.

ـ ثمةَ قسم «مشكلات عامة» الذي تطرح مقالاتُه مسألة الصِلات والروابط بين صورة/ لوحة العالَم علْمياً وفنّياً وخصوصية صورة/ لوحة العالَم الفنية مِن بينهما، ومنْهج وطرق دراستِها.

وهنا بعض عناوين المقالات والبحوث: «ب. س. ميلاخ» ـ الرابطة المتبادلة بين مقولات «فلسفة الفن» و«صورة/ لوحة العالَم الفنّية»؛ ـ «آ. م. موستيبانينكو» وَ«ر. آ. زوبوفا» ـ تناسُب صورتَي/ لوحتَي/ العالَم العلْمية والفنيّة؛ ـ «ي. ب. بْراندْيسْ» وَ «ت. آ. تْشيرْنيشيفا» ـ ارتباط الخيال العلْمي بالوضع المعاصر للعلم، و«الفلسفة الطبيعية» في إبداع الأسطورة والخرافة (بصورة أدقّ: إبداعهما «الفلسفي ـ الطبيعيِّ») كحاجة للوعي الجمْعي؛ ـ «ن، ب. زوباريفا» ــ التطور التاريخي للتصوّرات المكانية ـ الزمنية (الزمكانية) حول صورة/ لوحة العالَم الفنيّة؛ ـ «و. غ. نيْغْما توللينا» ـ الوظيفية التنبؤية/ الاستشرافية للفن؛

ـ وفي المجموعة قسم مخصّص لمشكلة تشخيص القدرات الفنّية وتطويرها... («ن. ف. روجْديسْتْفينْسْكَايا» وَ«ف. ل. دْرانكْوف»)؛ ومعايير/ مقاييس تشخيص القدرات الأدبية والموسيقية («ل. غ. جابيتْصْكايا» وَ «ل. ل. بوتْشكاريوف»).

وطُبعتْ في هذا القسم من المجموعة مواد «طاولة مستديرة» نظَّمتْها «لجنة الدراسة المركَّبة/ التكاملية للإبداع الفني» بالاشتراك مع معهد «لينينْغْراد» للمسرح والموسيقا والسينما وكُرِّستْ لِمشكلة كشْف وتطوير القدرات الفنية، وشارك في النِقاشات مجموعة مركَّبة بَين ـ أخِصّائية (بَين ـ عُلَمَائية) من حقول وميادين عديدة: علماء نفس، فلاسفة، فيزيولوجيون، تربويّون، كتّاب، رجالات وشخصيّات فنيّة.

ثمةَ أيضاً قسم متخصص آخر بعنوان «التقنية والفن» («ي. د. روْدْ» وَ«ي. ي. تْصوكرْمان»)؛ ـ «آ. ك. فوسْكْريسينْسكي» يُعالج مشكلة التناسب بين المعلومات والفن (على مثال إنشاء المنظومة التكاملية المعلومية والمؤتمتة ــ إيْيائيسْ ــ UAUC) في العلوم المجتمعية لدى «إينيون» أكاديمية العلوم «س» (إينْيون ــ UHUOH هو «معهد المعلومات العلمية في العلوم المجتمعية» الأكاديمي).

ــ وفي المجموعة أقسام أخرى أمثال: «ملاحظات. استجابات»، وَ «مواد غير منشورة».

إذا كان تعداد العناوين والمحاور وذكْر أسماء بعض المشاركين من كتَّاب مقالات المجموعة أخَذ هذا الحجمَ كلَّه فلا أدري إنْ كان منَ الحكمة التوغُّل أكثر مِن ذلك، لكن يمكن الاسترشاد بهذه المعلومات التي قد تفيد بعضَ جهات الترجمة والنَشر

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والإصدارات المتخصصة في أكثر من مجال: الإبداع ـ الفن والأدب ـ الدراسات والمقارَبات المركَّبة التي لازالتْ واعدةً وطفلاً يحبو عندَنا، فالدراسة أو المجموعة الإجمالية تضم هذه الحقول والميادين معاً: «الإبداع الفني: مسائل الدراسة المركَّبة/ التكاملية». ولكن لإعطاء تصوُّر أوّلي في إحدى الحالات/ المقالات المحدَّدة من المجموعة أختار مقالة المحرِّر المسؤول «ب. س. ميلاخ» ليس فقط كمحرر مسؤول عن المجموعة كلها، بل ولأعمالِه الكثيرة في هذا الشأن، ومنها المترجَم إلى العربية، والأهم من ذلك تركيزُه الدائم منذ البدايات ومنذ زمنٍ بعيد ولفترة طويلة مديدة لعقود وبعنادٍ وإصرار ـ تركيزه على منهجيات (ميتودولوجيا) المسألة وطرقها وطرائقها وعلى مسألة تقارب العلم والفن وتفاعل العلوم إجمالاً عبر منظورات ومقاربات منظومية ومركَّبة، بَين ـــ اختصاصية، وتعدُّدية الاختصاص، بالاشتراك في كثير من الأحيان مع الأكاديمي «كيدروف» ذي الباع الطويل فلْسفياً ومنْهجياً في تفاعل مجموعات العلم الكبرى وتركيبيَّتها Complexity والذي يُشارك في تحرير هذه المجموعة (وهو الذي كان مدير / رئيس قسم في أحد المعاهد الأكاديمية المتخصصة)، كما أنه كتبَ مقدمةَ الكتاب الآخر من تأليف «ميلاخ» وحده، والمترجَم إلى العربية (وزارة الثقافة 2014)؛ وقد يكون من أهم ميزات «ميلاخ» في السياق التركيبي/ المركَّب المديد هو خبراته التنظيمية المؤسسية في هذا الحقل تحديداً ولقاءاته ونشاطاته الحثيثة مع فِرَق ومجموعاتٍ ثرية واسعةِ طيفِ الاختصاص من ممثلي قائمة كبرى من العلوم، وذلك مِن واقع ترؤُّسِه اللَّجنةَ المتخصصة بالدراسةِ المركَّبة للإبداع الفني ردحاً من الزمن ومنذ التأسيس.

في رصْدِه ـ مقالةً ـ للارتباط المتبادل بين مقولات «فلسفة الفن» وَ «لوحة العالَم الفنيّة» ينوِّه «ميلاخ» أن الفلسفة وعلم الجمال (إيسْتيتيكا) لهما دور قاعديّ ركْني في تفاعل العلوم الدارِسة لِتشكُّل وترسيخ هذه أو تلك مِن لوحات العالم في المجتمع. واستخدام المقارَبة المنْظومية المركَّبة لدراسة لوحة العالَم الفنّية يتحدَّد بالطابع الشامل ـ universal والتركيبي (سينتيتيكي) لموضوع الدراسة ذاتِه: فلَوحة العالَم الفنيّة تتجمع عن طريق تكامل التصورات حول الأعمال/ الإنتاجات المختلفة لأنواع عديدة منَ الفنّ في إدراك القارِئ والمُشاهِد والمستمِع.

وهكذا يجري التوجُّه إلى دراسة واقع الفن وعمليات الإبداع مِن منظور تشكّل وصياغة هذه اللوحة الفنية للعالَم، وهو التوجُّه المدعوّ للتمكين مِن استبعاد عدم التناسُب بين نوعَين منَ الأعمال: التجريبية ـ الوصْفية/ مِن ناحية، والتصوُّريَّة ـ النظَرية/ مِن ناحية أخرى.

والمقاربة التكاملية (إينْتيغْراتيفية) تتطلَّب مبادئَ جديدة للدراسة وسياقات جديدة في الموضوعات التقليدية. ومِن موضوعات دراسة لوحة العالم الفنية يجري فرْز ما يلي: تطورّ مفاهيم ونُظَيريّات (تصغير نظرية) الشخصية في الفنّ والتصوُّرات حول مكان الإنسان في العالَم؛ الإنسان والمجتمع؛ الإنسان والطبيعة؛ التغيُّرات في تفسير/ معالجة «المشكلات الأبدِيَّة» ـ أمثال معنى الوجود البشري وهكذا.

آمل أن تكون هذه الشذَرات والملاحَظات والتقييمات كافيةً لِمَن يهمُّه وينفعُه وقد يحثُّه الأمر.

* * *

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ـ ميلاخ والفن والإبداع في مقارَبة مركَّبة

الكتاب الذي من تأليف بوريس ميلاخ والمعرَّب هذا العام ـ 2014 ـ يهتم بـ، وينطلق مِن، «المقاربة التكاملية»(3).

ملاحظتي: لستُ مسؤولاً عن ازدواجية تاريخ الإصدار فهو في الغلاف الداخلي: وزارة الثقافة ــ دمشق 2014م، وهو في الوجْه الخلفي لهذا الغلاف الداخلي في تسجيلات مكتبة الأسد: دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، 2013م. وسأرصد وأُتابع بعضَ اللحظات والمحطات المنظومية والمركبَّة/ التكاملية، وبَين ـ الاختصاصية، والتفاعلية بين العلوم فيه:

ـــ في تقديم الأكاديمي «ب. م. كيدروف» نجد مثلا: ملتقى العلوم المختلفة... التشابك الوثيق بين فئات العلوم الثلاثة الرئيسة أصبح ضرورياً للدراسات التكاملية... وحدة العلوم، التي تدرس الطبيعة والمجتمع والتقنية، وتداخلها المشترك العميق... الدراسة التكاملية للإبداع الفني والأدبي. تقوم هذه الدراسة على الترابط والتفاعل... المفيدة في دراسة أعقد أنواع النشاط... تشكَّلتْ هذه الدراسة التكاملية في اتجاه علمي واعد، يوحّد بين باحِثي العلوم المختلفة مع رجالات مختلف أجناس الفن...

والأستاذ بوريس ميلاخ.. دكتور في العلوم اللغوية.. ورئيس لجنة الدراسة التكاملية للإبداع الفني... وكان الأستاذ ميلاخ، منذ الستينيات من القرن الماضي قد بدأ بنَشْر أفكار استخدام مبادئ تكامل العلوم ومنهجها... وبخاصة في كتابه «عند ملتقى العلم والفن»، وفي المؤتمرات والندوات... ومع تشكُّل اتجاه علْمي جديد، تنشأ المبادئ المنهجية للبحوث التكاملية... [ص5- 6].

وهنا بعض مقْتطَفات من آراء المؤلِف معرَّبةً:

ـ ص14 إن كل مَن اعتاد على الفصل الصارم لمجالات المعرفة العلمية تأخذه الدهشة من هذا التركيب «الخليط» للمشاركين؛ فقد كان يتناوب النقاد الأدبيون وعلماء النفس، وعلماء الرياضيات ونقَّاد الفن، وعلماء الفيزيولوجيا العصبية وعلماء السبرانية، والفلاسفة وعلماء الفيزياء على إلقاء كلماتِهم ... والكتّاب والمؤلفون الموسيقيون والممثِلون و... المخرِجون...

ــ ص23 يتحدث المؤلِف عن اللجنة المتشكِلة المتخصصة راهنيّاً التي رئسَها طويلاً، فكتب:

كانت نتيجة مناقشة طرق وأساليب معرفة هذه الظاهرة المعقدة والمتعددة الجوانب، كظاهرة الإبداع الفني، تأسيس اللجنة الدائمة للدراسة التكاملية للإبداع الفني... وتضم هذه اللجنة ممثِلي العلوم الإنسانية والطبيعية. وإلى جانب الفلاسفة وعلماء الأدب والفن والجمال والتاريخ والاجتماع والنفس، يُشارك فيها علماء فيزيولوجيا الجملة العصبية والفيزياء والرياضيات والسبرانية. وإلى جانب العلماء، تضم هذه اللجنة مبدعي الفن والأدب من كتّاب ورسامين وموسيقيين، ومخرجين وممثِلين.

وقد أشارت الصحافة العالمية أكثر من مرة، إلى أن اللجنة تعد منظمة من نوع جديد... ... كان الشرط الأهم لإدارة البحوث والدراسات التكاملية تحديد برنامج عام، لتنظيم البحوث والدراسات العلمية المشتركة، على أساس المبادئ النظرية ــ المنهجية والتنظيمية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ــ ص38 ... ماركوف على حقّ، في حديثهِ عن تكثيف الاهتمام بالجانب التنظيمي للمقاربة التكاملية، وعن ضرورة تأسيس مركز عام لمثل هذه الإعدادات وفروعِها.

لقد تم الكشف بشكل دقيق عن العلاقة بين المبادئ العلمية ـ التقنية والمبادئ العلمية التنظيمية، وهي الصلة الضرورية للدراسات العلمية المشتركة بين عدة علوم...

ص40 ... صياغة منهج المقاربة التكاملية... لا بد من أن تنعكس في هذا المنهج مبادئ منطق المعرفة العلمية، وفلسفة العلم التي تدخل فيها صياغة المبادئ العامة لتشاركية العلوم وتكاملها [أنا مَنْ أَشَّر على التشاركية م. ن] يمكن لمنهج المقاربة التكاملية أن يصاغ ويوضع بنجاح في المراكز التنسيقية، حيث يجتمع علماء يمثلون العلوم المختلفة، وحيث يمكن إجراء المناقشات والمشاورات الجماعية. ومن أجل وضع برنامج، مدعَّم فلسفياً، لدراسة هذه أو تلك من المسائل التكاملية، لا بد من جماعة منهجية ترأس جماعة هؤلاء العلماء [تأشيراتي م. ن].

ـ ص41 من الإحالات والمرجعيات تبيَّن أن المؤلِف أشار إلى كتاب «كُوْن» (الذي اشتهر بخاصةٍ مع كتابه «بنْية الثورات العلْمية») ــ إلى كتابه الآخر بعنوان: اكتشاف «الأنا»، موسكو، 1978، هاهو يكتب: سأذكر، على سبيل المثال، كتاب الباحث (ي. س. كُوْن) «اكتشاف «الأنا»»، حيث يعالج التشكيل والتطور التاريخي للوعي الذاتي الفردي للشَخصية، يرتكز هذا البحث على المقاربة المشتركة بين مجموعة من العلوم، لأن مفهوم «الأنا» متعدِد الجوانب، وتتطلب دراستُه، كما يقول المؤلِف، «جهود خبراء علوم مختلفة ـ كالفلسفة وعلم النَفس والطب النفسي، والإثنوغرافيا، وعلم الاجتماع وعلم اللغة وما شابهَها».

ــ ص42 ينظر إلى تمازج الثقافات الإقليمي باعتبارِه نَسقاً كبيراً Macrosystem .

ـ ص49 يشير المؤلِف إلى أنّه: في المؤتمر المكرس لقضايا ومبادئ الدراسة التكاملية للوحة العالم الفنية (في كانون الأوّل 1982) بُحثت أيضاً مسائل مثل: خصوصية لوحة العالم الفنية؛ تناسب لوحة العالم الفنية والعلمية؛ خصائص تشكيل لوحتَي العالم الفنية والعلمية، ودور أجناس الفن المختلفة والأدب في تعزيز لوحة العالم الفنية ـ التاريخية ـ المحددة.

ـ ص51 العلوم الرائدة في مجال دراسة الإبداع الفني... هي علم الجمال، وعلم الأدب، والمعرفة الفنية [المعرفة مؤشّرةً منيّ بقصد م.ن].

ــ ص52 تُعَدُّ دراسةُ الأسس المعرفية لِاستيعاب العالَم برؤيةٍ فنية مسألةً مِنَ المسائل الجذرية التي يمكنها توحيد الخبراء والمختصين في الفلسفة وعلم الفن وعلم الأدب [تأشيري على كلمة علم في علم الفن منّي أيضاً وبقصدْ م. ن].

ــ وفي خصوص الإبداع بعامة ــ وليس الإبداع الفنّي وحدَهُ ـ نُريد تسجيل رأي المؤلِف في آخرِ صفحاتِ كتابه:

ـ ص379 تنشأ الآن بصورة عاجلة وملِحَّة مسائل الدراسة التكاملية للإبداع الإنساني...

ـ ص380 تُساعد المقاربة التكاملية على تكامُل وتصنيف العلوم المشارِكة في أبحاث الإبداع، كما تُساعد على إثراء هذه العلوم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ذاتِها، وعلى الإدراك المطرد لِمهامها الخاصة ولدورها في المسار العام نحو تفاعل العلوم وتنسيقها.

***

ـ لَمَسَاتُنا

ستكون لي وقفة أطول مع الإبداع بعامة وميادينِه ودراساتِه والعلوم المختصة به من جوانب عديدة في حال قرَّرْتُ رصْدَ ذلك هنا منظوميّاً وتركيبيّاً فيما بعد من فصل «الإبداع وعلم الإبداع» في كتابي: «الثقافة والإبداع والملكية الفكْرية»(4)؛ كما ستكون لي وقفة أخرى ربما مع «الأنا» واكتشافِها عند «كون» وبعض التفلسُفات المحلية التي تدبج كتاباً في الأنا بتكرارٍ شبْه ممجوج مع مفارقةِ الإيحاء بالجدارة والأصالة وفتْح خطّ جديد في شوارع الفكر، بل وربما مع إغفال هذا الأصل السَّبْقي العالمي المعروف والشهير والذي لا يفْسِح كثيراً من المجال وحرية الحركة للقيام بعملية احتيال فكْري.

وأمَّا تأشيري على تعبيرَيّ علم الفن مرةً ومعرفة الفن مرةً أخرى فبهدف إيضاح قضية هامة مصطلحيّاً/ ترميْنولوجيّاً ذات صلة بصياغة تَسْميات كثير من العلوم، على الأقل في الروسية المترجَم عنها في المثال. اعتدنا على أن تكون إضافيّةُ «لوجيا» كافيةً لتوصيف الشيء بأنه علْم، لكنَّ هذا ليس الخيار الوحيد، فثمَة الحالات التالية على الأقل: إيكا ـ uka ، كما في كلمة معلوماتية كعلْم ـ uHфopmat/uka = إينْفورماتيكا؛ وهناك صياغة للعلم ومفهومِه عبر إضافة كلمة معرفة = زْنانِيي ـ ZHaHue ومثالها علم اللغة ـــ يزيكوْ/زْنانِييي ـــ Я3bIko/ZHaHUe وتوجد حالة بناء العلم مفهوماً عبر إضافة كلمة فيدينيي، مثل: ناؤوكوْ/فيدينيي ـ Hayko/BeDeHue عدا الإضافة الشائعة المعروفة جداً إلى درجة البداهة: لوجيا ـ ЛОГИЯ = logy كما في علم المنظومات ـــ سيسْتيمولوجيا = Systemology = CUCTMO/ ЛОГИЯ.... إلخ.

وأمَّا التشاركية وصِلاتُها بالمحور الحالي ككل فقد تطرقْتُ إلى شيءٍ ما منها مع آفاقٍ أوسع واعدة لاحقاً، مع العلم أن المصطلح بكماليتِه وكامِل أناقتِه المذكورة هنا جديدٌ تماماً على العربية وعمرُه قصير منذ النشوء ولا يقابل بتمام الدلالة أيَّ مصطلح مطابق له لا في الروسية ولا في الإنكليزية لأنه وضِع عربياً مباشرةً بلا مقابل تيرمينولوجي/ مصطلحي يفي بذاتِ الغرضِ والهدفِ الذي يحقّقه هذا المصطلح المؤسَّس عربياً، أمَّا محاولات توليفِه بحرْفية وبلا احترافية مع مفاهيم ومصطلحات سابقة كانت قائمة ومستخْدمة قبل ابتكارِه فهي محاوَلات بائسة، وهو غير مسْتَغْرَق مثلاً في المشاركة، ولا في الشَراكة؛ ولا في الشركة أوْ الاشتراكية مِن بابٍ أَولى، وكنتُ أوضحْتُ ذلك كلَّه في محاضرات متخصصة وقبلْها في منشورات دورية كثيرة منذ أواخر التسعينيّات تأْسيساً، إلاَّ أنني استطعتُ القيام بتوليفة معاكسة بتمديد دلالات التشاركية شمولياً ورؤْيوياً لتضم التشاركية العلمية والمعرفية والتِقانية والتطبيقية، فتكون عندها أمام عالَمٍ جديد واعِد تماماً وأحد حالاتِه الفرعية التفصيلية كل ما نتحدث عنه هنا ضمن هذا المحور مِن دراسات ومقارَبات تركيبية ومركّبة ومنظومية، وبين ـ (وتعدُّدية) ـ الاختصاصية، والتكاملية وما إلى ذلك،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وإيضاح ذلك كلِه قد يستلزم سِفْراً مطوَّلاً وجهْداً كبيراً، قد نكتفي بإنجاز جزءٍ منه فقط، على الأقلّ، لاحقاً.

هوامش:

1ـ ملاحظة: بعد ذلك صارت دراسة الفولكلور... مقرَّراً للماجستير في قسم علم الاجتماع في كلية الآداب بجامعة دمشق.../ (دوِّن في 2015/3/14).

2ــ الإبداع الفنيّ: مسائل الدراسة المركَّبة/ التكاملية، 1983/ فريق التحرير: «بلاغوي د.د.»، «كيدروف ب. م»، «ميلاخ ب. س.» (المحرِّر المسؤول) وآخرون؛ أكاديمية العلوم «س»، المجلس العلْمي لتاريخ الثقافة العالمية، لجنة الدراسة المركَّبة/ التكاملية للإبداع الفنّي. ــ «لينينْغراد»: دار نشر «العلم»، 1983. ـ 279 صفحة.

3ــ عملية الإبداع والإدراك الفني: مقاربة تكاملية/ تأليف بوريس ميلاخ؛ ترجمة د. نزار عيون السود ــ دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، 2013. ــ 384 ص؛ 24سم.

4ـ وإذا كان قد ثبت أن الإبداع الفني مفرداً هو مشكلة مركَّبة، وله لجنة مركبة لدراستِه، فمن الأولى أن يكون الإبداع العام كذلك أيضاً مركباً، بل أكثر تركُّباً وتعقّداً..

❑❑

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com